محاضرة أثر المعتزلة في النقد

تمهيد:

المعتزلة فرقة إسلامية أطلق عليها أسماء مختلفة منها: المعتزلة والقدرية والعدلية وأهل العدل والتوحيد والمقتصدة والوعيدية. نشأت في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي، وكان لها أكبر الأثر على ثقافة المسلمين لاعتمادها العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية بسبب تأثرها بالفلسفة.

تقوم فكرة المعتزلة على أن الإنسان مختار بشكل مطلق في كل ما يفعل، فهو يخلق أفعاله بنفسه، ولذلك كان التكليف، وأن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً ولا كافراً ولكنه فاسق، فهو بمنزلة بين المنزلتين، وأما مذهبهم فيتلخص في خمسة أصول هي:
التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نشأة المعتزلة وأبرز شخصياتها:

بالإضافة إلى الاختلافات السياسية والعقيدية التي عرفها المسلمون بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم)، واختلافهم في مسألة أحقية الحكم التي ازدادت حدة بعد وفاة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، يذهب أغلب الباحثين في شأن المعتزلة إلى أن مدرسة المعتزلة بدأت مع **واصل بن عطاء**، وعمرو بن عبيد، وكانت فترة نشاطهما أثناء خلافة هشام وخلفائه الأمويين، أي من سنة (105 ه) - إلى سنة (131ه) -

وأما عن سبب تسميتهم "معتزلة" فلأنهم اعتزلوا المسلمين بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين، بعد أن اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري، وشكّل حقلة خاصة به لقوله بالمنزلة بين المنزلتين، وقول الحسن: "اعتزلنا واصل"، ومن أبرز مفكري المعتزلة منذ تأسيسها على يد واصل بن عطاء:

إبراهيم بن سيّار بن هانئ النظام البصري أبو إسحاق (توفي سنة 231هـ). تأثر بالفلسفة اليونانية مثل بقية المعتزلة. اختلف في سبب إطلاق هذا اللقب عليه، فأشياعه يقولون إنها من إجادته لنظم الكلام، بينما أرجع خصومه ذلك بأنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة. تبحّر في علوم الفلسفة. ذكر له المؤرّخون وكتّاب التراجم كتباً كثيرة في الفلسفة والاعتزال، إلاّ أنها لم تصل، كما رُوي عنه شعر وأدب.

بشر بن المعتمر الهلالي (ت 226ه)، رأس معتزلة بغداد، وواحد من أبرز أدبائهم المعروفين. لبشر بن المعتمر أهمّيته في أدب المعتزلة، فهو صاحب الصحيفة المشهورة التي وضع فيها القواعد الأساسية لعلم البلاغة العربية، وقد أثبتها الجاحظ في (البيان والتبيين) مع تعليقات وشروح عليها وتحليلات لها، وكذلك نقل مقاطع منها صاحب (الصناعتين)، و(العمدة).

عمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ (ت 256هـ)، وهو من كبار كتاب المعتزلة، ومن المطلعين على كتب الفلاسفة، يعدّ من أساطين الأدب العربي وزعيم صنعته من البلاغيين، وأحد أشهر متكلّمي المعتزلة، فما خلّفه الرجل من آثار ومؤلّفات تجسّد بوضوح جميع النزعات والاتجاهات الإعتزالية. وتتجلى قدرته في عرض الحقائق والظواهر العلمية بأسلوب أدبي: إذ له قدرة فائقة على عرض الفكرة ومعالجتها، وهو دائماً يذهب من المقدّمات إلى النتائج، ومن الخاصّ إلى العام، متّبعاً طريق الجدل المنطقيّ، جامعا بين الفكرة والطرفة، ليوصلها للعامة فضلا عن الخاصة، لغته بسيطة لكنها معبرة.

الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد جار الله، (467 ه - 538هـ). ولد في "زمخشر" من إقليم "خوارزم" الفارسي. درس العلوم اللغوية والدينية، وأخذ الأدب عن أبي الحسن علي بن المظفّر النيسابوري، وأبي مضر محمد بن جرير الضبيّ الأصبهاني، وقضى شطراً كبيراً من حياته في الترحال، فأقام في بغداد مدّة، وجاور بمكة طويلاً، وبها أملى تفسيره الكشّاف. كان كاتباً، وشاعراً، ومفسّراً للقرآن الكريم. بالإضافة إلى (الكشّاف)، فإن

للزمخشري كتباً معروفة من أهمّها كتاب (المفصّل) في النحو، وقد عُني به من جاؤوا بعده وشرحوه مراراً، ومعجم (أساس البلاغة)، وكتاب (أطواق الذهب).

ابن أبي الحديد المعتزليّ عزّ الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد المدائني، (586-656ه)، ولد في المدائن، وتلقى عن شيوخها، ودرس المذاهب الكلامية ثم مال إلى مذهب الاعتزال. سافر في مطلع شبابه إلى بغداد حيث استزاد من العلم فيها، واختلط بالعلماء فيها، وفيها نال الحظوة لدى الخلفاء العباسيين، وله مع الأشعري والغزالي والرازي كتب ومواقف.

جهود المعتزلة في النقد:

عرف المعتزلة بمقدرتهم على الجدل، وبثقافتهم العقلية والمنطقية الواسعة، وتمرّسهم في قواعد وأساليب الجدل التي اقتبسوها من اليونانيين بالدرجة الأولى، فالمعتزلة- على غرار الجاحظ، والنظّام، وثمامة بن الأشرس، وأبي حيّان التوحيدي وغيرهم-، كانوا من أمهر الأدباء والشعراء، ولعله السبب الذي مكنهم من بسط الموضوعات العلمية والفلسفية المعقّدة والشائكة، وتقديمها إلى عامّة الجمهور بأسلوب سهل مبسّط جذّاب يتميّز بالطابع الأدبي والفنّي. وأبرز ما خلفوه، ما ورد في كتاب البيان والتبيين **للجاحظ**، وصحيفة **بشر بن المعتمر(ت 210 ه)** وهي أقدم وأبرز مصدر بلاغي. يقول بشر في مقدّمة صحيفته: "خُذْ من نفسكَ ساعة نشاطك وفراغَ بالِكَ وإجابَتها إياك، فإن قليلَ تلك الساعة أكرمُ جوهراً وأشرفُ حسباً، وأحسن في الأسماع وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ وأجلبُ لكل عين، وغرُّة ، من لفظ شريف ومعنى بديع، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يُعطيك يومك الأطولُ بالكدّ والمطاولةِ والمجاهدة وبالتكلّفِ والمعاودةِ، ومهما أخطأكَ لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً، وخفيفاً على اللسانِ سهلاً، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه...".

كما نجد **عمرو بن عبيد** (م80ه-ت144ه) يؤكد حرصه على الإيجاز في البلاغة وينفر من الإطالة التي تؤدي إلى التكلف في الحديث وهو شيء مستقبح في قول آخر، روي عنه: "لا خير في المتكلم إذا كان كلامه لمن يشهد دون نفسه، وإذا طال الكلام عرضت للمتكلم أسباب التكلف، ولا خير في شيء يأتيك به التكلف". وقد طبق عمرو هذا المبدأ البلاغي على نفسه، فكان كما قال عمر الشمري: "لا يكاد يتكلم فغذا تكلم لم يكد يطيل".

وفي النشاط الفكري الذي قدمته جماعة المعتزلة نجد هذا النشاط قد تعدد عند **إبراهيم بن السيار النظام(ت 220ه)**، "فبرع في علم الفلسفة والفقه حتى لم ير الجاحظ أحدا أعلم بالكلام والفقه منه"، وله آراء تتصل بالأصول، كما نجد له نقدا شديدا للحديث ورجاله، وجرأة في الطعن في رواته حتى لو كانوا من الصحابة الجلّة الأولين، وله جهود في تفسير القرآن والحديث عن إعجازه، وفي هذا المقام لا نغفل عن التنويه إلى ان كثرة اشتغال النظام بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام قد لونت تفكيره تلوينا خاصا، فهو يطلق العنان للعقل بشكل لا نظير له وإن كانت هذه سمة معروفة عند المعتزلة فغن النظام كان نسيج وحده في هذا المجال.

كما نجد **لأبي العباس الناشئ (ت 293ه)** جهود كبيرة في الرد على خصومه يقول السيرافي: "وهذا الناشئ أبو العباس قد نقض عليكم، وتتبع طريقتكم وبين خطأكم، وأبرز ضعفكم ولم تقدروا على اليوم ان تردوا عليه كلمة واحدة مما قال"، وكان أو العباس شاعرا مجيدا وقد ترجم له ابن المعتز في طبقات الشعراء وقال عنه ابن خلكان وكان بارعا غزير الشعر، ولم يكن شاعرا ولا عالما فقط ولكنه كان أيضا ناقدا ممتازا، وقد أفرد الشعر بكتاب مستقل سماه (تفضيل الشعر).

وخلاصة الرأي أن المعتزلة تمثل مدرسة فكرية نشيطة اكتسبت الدراسات الأدبية والنقدية على أيديها كثيرا من العمق والخصب وحرية الرأي في التفكير، كما كان لهم فضل كبير على الإسلام والمسلمين وعلى الأدب العربي والفكر الإسلامي، قاموا بحق الإسلام في

الدفاع عنه ضد خصومه وأعدائه، وكانوا مثقفين فدرسوا الإسلام دراسة عقلية عميقة محاولين التوفيق بين الدين والفلسفة والعقل والنقل، ولكنهم تركوا العقل ينطلق على غير مدى، فكان لهم شذوذ في الفكر وجموح عن الحق في كثير من المسائل وتغليب للأهواء في مسائل أخرى.